الفصل الثاني عشر

مستقبل السينما التسجيلية في مصر

مستقبل السينمـــا التســجيلية في مصر

هو مستقبل مرتبط بمستقبل البلد وبوعى شبابه بالمشاكل الحقيقية التى تواجه مسيرة التاريخ المصرى الحديث وبإدراكه الطريق السليم لبناء مستقبل سليم وقدرته على ممارسة الحياة بصعابها ومشاقها دون أن تلين قناته أو ينكسر وينحرف ويهرب ويضيع .

ويجب أن يشترك الشباب مع الكبار لكى ينتجوا معا ومعتمدين على أنفسهم أفلاماً تساعدها الدولة بطريقة أو بأخرى (١) .

وعلى وزارة الثقافة رعاية الفيلم التسجيلي وذلك :

* بأن تسن قانوناً يحتم على جميع دور العرض السينمائى فى جميع أنحاء الجمهورية بضرورة عرض فيلم تسجيلي قبل الفيلم الروائى الطويل وتخصيص نسبة ولو ضئيلة من دخل شباك التذاكر للفيلم التسجيلي تبعاً لطوله ونوعيته حتى يستطيع أن يسترد تكاليفه أو يربح ويواصل ويستمر فى العمل وبدون هذا القانون لن يكون هناك سينما تسجيليه ولن تقوم لها قائمة لأن ازدهار السينما التسجيلية معناه نهضة شاملة للسينما جميعاً (٢) .

* تقوم وزارة الثقافة بشراء عدداً من نسخ الفيلم لعرضه فى نوادى الثقافة الجماهيرية وغيرها من الأماكن التابعة للوزارة .

* أن يعفى الفيلم التسجيلي من نسبة معينة من تكاليف الطبع والتحميض والخدمات السينمائية المختلفة أسوة بالفيلم الروائى الطويل .

* أن توصى وزارة الثقافة الوزارات والمصالح والهيئات المختلفة فى الدولة بشراء نسخ من الأفلام التسجيلية خاصة تلك التى تفوز بجوائز فى المهرجانات(٣) .

ما مستقبل السينما التسجيلية في العالم العربي بصفة عامة وفي مصر بصفة خاصة ؟

بعض الأجوبة على مثل هذه الأسئلة المشروعة تأتي عن طريق التوقع المبني على ملاحظات وقراءات الواقع الراهن، وبعضها يستقي مضمونه من العودة إلى تجارب حدثت في الماضي يمكن أن تشكل أنموذجا يُقتدى به مع ضرورة ملائمته لتطورات و مستجدات العصر بطبيعة الحال .

من هذه الأسئلة المشروعة والراهنة التي لا جواب حاسما عليها السؤال حول مستقبل وآفاق السينما التسجيلية العربية في زمن ما بعد الربيع العربي، وهو السؤال الذي قد تنفعنا الاستفادة من بعض تجارب الماضي التي شهدها تاريخ السينما العالمي والعربي، في تلمس بعض جوانب الإجابة عليه .

مشروعية السؤال تنتج عن واقع السينما التسجيلية العربية المتزامن مع تشكل وقائع الانتفاضات الشعبية في عدد من الدول العربية، وتحديدا تونس ومصر، والتي صار يطلق عليها تسمية" الربيع العربي" وهي تسمية تعكس حالة التفاؤل التي انتشرت في العالم العربي بخاصة بعد الانتصارات المبدئية التي تحققت نتيجة الانتفاضات الشعبية وتمثلت في سقوط ثلاثة من الرؤساء العرب الطغاة هم على التوالي الرئيس التونسي ثم الرئيس المصري ثم الرئيس اليمني لاحقا .

هذا الواقع الذي بدت فيه السينما التسجيلية العربية في مصر تونس في أوج نشاطها حيث تصدرت واجهة المشهد السينمائي المصري، وليس ذلك فقط فقد بدت وكأنها جزء من الانتفاضة الشعبية أو على الأقل جزء مكمل لها .

حالة التفاؤل هذه هي ما أكدها بوضوح الفيلم التسجيلي التونسي والعنوان الذي اختير له وهو:" لا خوف بعد اليوم" للمخرج مراد بن الشيخ، وكذلك العديد من الأفلام التسجيلية التي جرى إنتاجها في مصر حول وقائع الانتفاضة الشعبية التي عمت كل أرجاء مصر، وهي الأفلام التي تنتمي في غالبيتها إلى سينما المخرجين الشباب المستقلين والذين لم يكتف بعضهم بتصوير ما أمكنهم من وقائع الانتفاضة بل كانت لهم مشاركة فعلية فيها بشخوصهم و بكاميراتهم، وهذا ما عكس نوعا من الانسجام

بين القول والفعل، بين الموقف الذي يتخذه السينمائي التسجيلي و الجانب المهم من جوانب الفيلم التسجيلي، وهو الجانب السياسي النضالي إلى حد ما .

تعيد هذه الحالة إلى الذهن الفيلم المصري الروائي الطويل" العوامة ٧٠" للمخرج خيري بشارة والذي جرى إنتاجه قبل نحو ثلاثة عقود من الزمن، وهو الفيلم الذي يطرح السؤال حول الانسجام ما بين وظيفة الفيلم التسجيلي المتمثلة في التعبير عن الواقع وطرح ما فيه من مشاكل بجرأة وشجاعة، ومدى التزام المخرج التسجيلي بهذه الوظيفة وتحمله لهذه المسؤولية، وذلك عبر حكاية مخرج سينمائي تسجيلي يكتشف فيما هو يصور فيلمه قضية فساد كبرى و يتردد في فضحها.

في حين ، أطلق العديد من المعلقين على الانتفاضة الشعبية العربية وصف انتفاضة مشهدية بصرية بامتياز، وذلك بالنظر إلى الدور الكبير الذي لعبته المشاهد الحية المصورة لأحداث الانتفاضة، والتي كان يجري عرضها في بث حي مباشر على مدار الساعة عبر المحطات التلفزيونية الفضائية، والتي كان يجري تصويرها بكل التقنيات الرقمية المتاحة مثل كاميرات المحترفين وكاميرات الهواة وكاميرات الهواتف الشخصية المحمولة، ليس فقط في تعريف العالم بما يحدث وتوثيقه، بل في تحفيز فئات الشعب التي تتخذ موقف المتفرج، وهو موقف سلبي أو حيادي، على المشاركة في الحدث.

يذكرنا هذا الحال بالدور الهام الذي لعبته محطات البث التلفزيوني الأمريكية أثناء حرب الفيتنام في تحفيز الشعب الأمريكي على التظاهر ضد هذه الحرب التي تسببت في وقوع آلاف القتلى والجرحى بين صفوف الجنود الأمريكيين.

كان من الطبيعي في مثل هذه الأجواء أن يسارع السينمائيون، خاصة في مصر، إلى إنتاج الأفلام التسجيلية، التي لم يكتف مخرجوها باستخدام وثائق من الأرشيف التلفزيوني، بل اعتمدوا على جهودهم الذاتية لتصوير الأحداث آخذين بعين الاعتبار إمكانية تحويل المواد المصورة إلى أفلام تسجيلية لا تكتفي بالتوثيق، كما هو الحال بالنسبة للمشاهد التلفزيونية المصورة، بل تعكس وجهة نظرهم و رؤيتهم الخاصة وتعبر عن التزامهم الشخصي بالمشاركة في الانتفاضة مع أبناء شعبهم، و لو عن طريق السينما.

مراجع الفصـل الثانى عشـــر

(١) محمد عبد الله , تجارب فى السينما التسجيلية المصرية , القاهرة , الهيئة المصرية العامة للكتاب , ١٩٨٤ , ص٣٤ .

(٢) المرجع السابق , ص٨٦ .

(٣) نفس المرجع السابق , ص٣٨ .